الأبعاد الجمالية للتقديم والتأخير في سورة الفاتحة

الأستاذ المساعد الدكتور
رسول بلاوي
جمهورية إيران الإسلامية ـ جامعة خليج فارس ـ بوشهر
r.ballawy@gmail.com

المقدمة:

تشرّفت اللغة العربية بالعديد من الميزات والأساليب ولعلّ أهمّها كونها اللغة التي نزل بها القرآن الكريم وهي إلى ذلك تمتاز بتنظيم تركيبي عجيب، جعل نظامها اللغوي فريداً من نوعه لدرجة إنّك إذا أردت أن تبدل كلمة واحدة في التراكيب بكلمة غيرها، يستحيل أن تجد مثلها في ذلك الجمال واللطف الذي تميزت به تلك الكلمة في ذلك التعبير، سواء من حيث لفظها أو تأدية المعنى المراد والمقصود بعينه.

لقد تعدّدت البحوث التي تطرّقت لبيان جمال وروعة هذه اللغة فقد كثرت دراسات الدارسين في هذا الصدد وكلّ منهم أخذ يبحث الموضوع من جانب ومن زاوية رؤيته، وحسب الأهداف التي سطرها، والتي يريد تحقيقها من تناوله لذلك الموضوع.

ومن الموضوعات التي نالت حظّاً وافراً من الحديث سواء من قبل النحويين أو من قبل البلاغيين هو التقديم والتأخير التي تكمن فيه جماليات اللغة العربية فمن أقبل على دراسة هذا الموضوع يتبين له شرف اللغة وجمالها لما فيه من دقائق ولطائف لا تخفى على صاحب الذوق السليم.

لعلّنا لا نغالي إذا قلنا أكثر دراسات السلف التي تطرّقت إلى ظاهرة التقديم والتأخير في اللغة العربية كانت تطمح إلى بيان إعجاز القرآن الكريم الذي جاء في الغاية العظمى من البلاغة والفصاحة، فتوافر العلماء على البحث في أسراره واستخراج درره فصنّف فيه الزملكاني والفراء وأبو عبيدة والرازي وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم، والواقع أن المصنفات الأولى في الإعجاز على اختلاف مذاهب أصحابها، جاء أشبه بمباحث بلاغية مما قدّروا أن إعجاز القرآن يُعرف بها، وإن استوعبت أقوال المتكلمين في وجوه الإعجاز،

فرسائل الخطّابي السني، والرماني، والمعتزلي، والباقلاني، والأشعري، تأخذ مكانها في المكتبة البلاغية وبعد أن استقلّت البلاغة بالتأليف والتصنيف، وُجِّهت إلى خدمة الإعجاز البلاغي... الجرجاني يضع كتابه دلائل الإعجاز في النظم والبلاغة، وأبو هلال العسكري يضع علم الفصاحة والبلاغة تالياً لعلم التوحيد، والزمخشري وهو من المعتزلة يقرّر أنه لابدّ من علم البيان والمعاني لإدراك معجزة رسول الله ﷺ.

نحن في هذه الدراسة أردنا أن نساهم في كشف وتبيين جوانب من الإعجاز القرآني فتناولنا أسلوب التقديم والتأخير بالدراسة والتدقيق لما فيق من وجوه بلاغية دقيقة يستحسَنُ الوقوف عليها ثمّ أقبلنا على دراسة سورة الحمد كنموذجٍ وبيّنا فيها دقائق التقديم والتأخير لكثرة التعامل معها في الصلاة فمن يطّلع على جمالها وبلاغتها سوف ينتفع بذلك فيطيل النظر والإمعان فيها ويتّضح له إعجاز القرآن الكريم باعتبارها "فاتحة الكتاب".

خلفية البحث:

أوّل من طرق باب ((التقديم والتأخير)) واطّلع على شيء من سرّه هو سيبويه حيث توقّف عند هذا الموضوع في أبواب كثيرة من كتابه[١]. ثمّ جاء عبد القاهر الجرجاني فسبر أغواره وعمّق البحث، حيث خصّص له فصلاً في كتابه دلائل الإعجاز، استهلّه بتأكيد أهميته والتنويه بقيمته في قوله: ((هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن واسع التصرّف، بعيدُ الغاية، لايزال يفترّ لك عن بديعة ويفضي لك عن لطيفة، ولاتزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه ثم تنظر فتجد سبب أن راقك ولطف عندك، أن قدم فيه شيء وحول اللفظ من مكان إلى مكان))[٢]. وقسّم التقديم والتأخير إلى ما هو علي نيّه التأخير، وما هو لا على نيّه التأخير.

وجرى المتأخرون على نهج اسلافهم في تبيين إعجاز القرآن الكريم كصنيع الشيخ محمد عبده في الفصل الذي كتبه في تفسيره (تفسير الذكر الحكيم) عن الإعجاز[٣].

ومن أهم المصنّفات التي تعالج هذه الظاهرة في القرآن الكريم، كتاب "بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم" لعلي ابي القاسم عون، وكتاب "دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم" لمنير محمود المسيري. وكما يتّضح من عناوين هذه الدراسات القرآنية، إنها

لم تتفرّد لمعالجة جماليات "سورة الحمد" بل أشاروا لها في طيّ بحوثهم.

الدوافع المعنوية للتقديم والتأخير:

التقديم والتأخير من التقينات التي تحقّق تناسباً معنوياً داخل السياق، أي أغراضه خلق توافق وتآلف سياقي معنوي.

هناك دوافع وأسباب معنوية كثيرة ذكرها البلاغيون للتقديم والتأخير نذكر في ما يلي أهمّ هذه الدوافع والأسباب التي تعنينا في دراستنا لسورة الحمد لاحقاً ونهمل ما عدا ذلك:

١- **دلالة السياق**: لتحقيق التناسب المعنوي أو المناسبة قدّم ما زمنه متأخّر في قوله: ﴿وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ﴾ (النحل /٦). كما نلاحظ قدّم (تريحون) على (تسرحون)، وإراحة الأنعام متأخرة في الترتيب الزمني عن تسريحها، ولكن لّما كان السياق في بيان ما في الأنعام من متعة وجمال للإنسان، والإنعام تبدو وقت رواحها أكثر جمالاً لأنّها تعود من المرعى بطاناً، فإن تقديم (تريحون) هو الأنسب لهذا السياق.

٢- **تعجيل المسرّة**: كقوله تعالى: ﴿عَفَا اللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾ التوبة /٤٣.

فلو اختلف الترتيب في الآية فجاءت هكذا (لِمَ أذنتَ لهم عفا الله عنك) لم تحمل نفس المعنى ولا أفهمت هذا المراد من الآية الأولى التي جاءت مصدّره بالعفو لإذهاب أي خوف من قلب رسول الله ﷺ بسبب تقدير الآية بالعتاب، كما أنها حملت معنى آخر، وهو بيان عظيم مكانة هذا النبي عند ربّه الذي لم يرد أن يبادره بالعتاب بل بادرهُ بخطاب التلطيف مع الأحباب[٤].

٣ـ **تعجيل المساءه أو التشاوم**: ومنه قوله تعالى: ((فويلٌ للذين يكتبون الكتاب بأيديهم)) (البقرة /٤٣). إن تقديم كلمة ((ويلٌ)) هنا أشاعت جوّاً نفسياً مملوءاً بالخوف المرتقب والتشاؤم من العذاب المنتظر الذي مهدّت له وأوحت به كلمة ((ويلٌ)) والتي كان بسبب تقدمها مصاحبة هذا الشعور التشاؤمي لنفس من هذه حالته من أول الآية وحتى آخرها فلايزال الذين يكتبون الكتاب مرهوبين من بداية

الآية على عكس لو أخّرت فقيل: فللذين يكتبون الكتاب بأيديهم ويلٌ[٥].

٤- **الاختصاص**: وذلك بتقديم المفعول، والخبر، والظرف، والجار والمجرور ونحوها على الفعل كقوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة /٥)، أي نخصّك بالعبادة والاستعانة، فلا نعبد غيرك، ولا نستعين بسواك.

٥- **التشويق للمتأخر**: ومنه قوله تعالى: ﴿أَفَأُنَبِّئُكُمْ بِشَرٍّ مِنْ ذَلِكُمُ النَّارُ وَعَدَهَا اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (الحج /٧٢) ليس من شك أن تأخير ذكر النار في الآية الكريمة شغل العقل والفكر في مسرح من التوقعات الذهنية لما يبشَر به من هذا حاله، وليكون ذلك أدعى لاستقرار المعنى وثبوته أيضاً.

٦- **العناية والاهتمام**: كالآية التالية: ﴿رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ﴾ (التحريم/١١). قدّمت الجوار وهي كلمة ((عندك)) على السكن وهي كلمة ((بيتاً)). ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾ (البقرة /٤٣). فبدأ بالصلاة لأنّها أهمّ.

٧- **التبكيت والتعجب**: ومن ذلك تقديم المفعول الثاني على الأول في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾ (الأنعام / ١٠٠). والأصل (الجنَّ شركاءَ) وقدم، لأنّ المقصود هنا التوبيخ على اتخاذ الشريك، سواء أكان من الجن أم من غيره، وهذا أبلغ في حصوله وأدلّ على المقصود[٦].

٨- **السبق بالزمان والايجاد**: ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ﴾ (آل عمران /٦٨). فالنبي أفضل من أتباع ابراهيم ولكنّهم قدموا عليه لوجودهم قبله زماناً.

ومنه قوله تعالى: ﴿هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾ (الفرقان /٤٧). فالأزواج قبل الذرية وهم سبب وجودها.

٩- **التقديم بالعلة والسببية**: كتقديم العزيز على الحكيم، لأنّه عزّ فحكم، وتقديم العليم على الحكيم، لأن الإتقان ناشئ عن العلم، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا

عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (البقرة/ ٣٢). ومنه قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (الفاتحة/٥). قدمّت العبادة لأنّها سبب حصول الإعانة.

١٠- **الغلبة والكثرة:** كقوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾ (المائدة/٣٨).

فالسرقة عند الرجال أكثر منها في النساء، أما قوله تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي﴾ (النور/٢). بتقديم المرأة لأن الزنا فيهن أكثر[٧]. هذا ما يراه الدكتور منير المسيري ولنا رأي آخر في تقديم ((الزانية)) على ((الزاني)) في هذه الآية الكريمة فالدافع هو العلّة والسببية. فالمرأة هي السبب في الزنا ولا يتجرأ الرجل على الاقتراب من هذه الفاحشة الاّ بعد اطمئنانه من رضاية المرأة. ورأي المسيري مردود عليه لأن لا يوجد عمل زنا من جهة النساء الا وقد ارتطم رجل في ذلك فتكون النسبة متساوية في ذلك بين الرجال والنساء تقريباً.

الدوافع اللفظية في التقديم والتأخير:

إنّ التناسب اللفظّي هو التآلف التعبيري والتناغم الموسيقي والتوافق الجمالِي، وهو مجموع موحّد، يبرزه حسن الرصف وبراعة السبك وجودة التأليف. فجمال القرآن وروعته لا يقتصر على معانيه السامية، بل هناك جوانب لفظية لا تخفى على المتذّوق لبلاغة القرآن فقد نزل القرآن بأسلوب رائعٍ ومعجز أفحم مَن أراد التحدي والتطاول.

ومن أهمّ الأساليب التي يكمن فيها جمال القرآن هو سبيل التقديم والتأخير ففي ما يلي ندرسُ دوافعه اللفظية بموضوعيةٍ اكثر وتحت عناوين فرعية، منها:

١- **مراعاة النظم:** كما في قوله تعالى: ﴿وَآيَةٌ لَّهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ * وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ * وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ﴾ (يس/٣٨-٣٦). قدّم المفعول في قوله: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ﴾ مراعاةً لنظم الكلام، فإنه قال: ﴿اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ﴾ ثم قال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي﴾ فاقتضى حسن النظم أن يقول: ﴿وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ﴾ ليكون الجميع على نسقٍ واحد في النظم، ولو قال: وقدرنا القمر منازل، لما كان بتلك الصورة في الحسن. ومن مراعاة النظم تقديم الجار

والمجرور أي ((فيه)) على ((مواخر)) في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (فاطر /١٢)، تناسباً مع تقديم المجرور ((من كلّ)) على ((تأكلون)).

٢- **مراعاة الفاصلة**: الفاصلة كلمة آخر الآية كالقافية في الشعر وكالسجع في النثر. وعرّفها القاضي أبو بكر: ((الفواصل حروف متشاكلة في المقاطع يقع بها إفهام المعاني))[٨]. من ذلك قوله تعالى: ((فأوجس في نفسه خيفةً موسى)) (طه/٦٧). في هذه الآية قدّم المفعول والجار والمجرور، وأخّر الفاعل (موسى) لأنه رأس آية فناسب رؤوس الآيات قبله وبعده، نحو(ألقى)، (تسعى)، (الأعلى)، (آتى)، وحقق الفاصلة الموحدة في اغلب السورة وهي الألف المقصورة، ولذلك ايضا قدّم (هارون) وأخّر (موسى) في قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى﴾ (طه/٦٩)، مراعاةً للفاصلة لأن من حقّ موسى أن يقدّم على هارون تشريفاً، كما في قوله تعالى: ﴿رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ﴾ (الشعراء/٤٧).

ويرى بعض الباحثين تقديم المفعول على الفعل في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ليس لمجرد الاختصاص، وانّما جاء التقديم والتأخير حرصاً على رعاية الفاصلة، لأنّه لو قال: نعبدك ونستعينك، لم يكن له في الحسن ما لقوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ألا ترى تقدّم قوله تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ فجاء بعد ذلك قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وذلك مراعاةً للفاصلة التي جاء رويها حرف النون، ولو قال نعبدك ونستعينك لذهبت تلك الطلاوة، وزال ذلك الحسن[٩].

٣- **الايقاع والتناسق الفني**: إنّ هذا القرآن العظيم يمتاز بأسلوب إيقاعي جميل، غني بالموسيقي، مملوء نغماً وسحراً، ففي كلّ سورة وآية، وفي كلّ مقطع منه وفقرة نجد هذه الخصيصة البارزة الواضحة. ولعلنا لا نغالي إذا رددنا سحرَ القرآن إلى نسقه الذي يجمع بين مزايا النثر والشعر جميعاً[١٠]، فقد أعفي التعبير من قيود القافية الموحدة والتفعيلات التامة، فنال بذلك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة، وأخذ في الوقت ذاته من الشعر الموسيقى الداخلة، والفواصل المتقاربة في

الوزن التي تُغني عن التفاصيل، والتقفية التي تُغني عن القوافي. إنّ هذا الايقاع الصوتي، لينبعث في القرآن المجيد حتى من اللفظة المفردة، في كلّ آية من آياته، فتكاد تستقلّ بجرسها وموسيقاها.

من أهمّ التقينات التي تساعد على موسيقى القرآن وتحرص على ايقاع الجملة تقنية التقديم والتأخير، فإذا أمعنا النظر في هذه الآية: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ * ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ * ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ﴾ الحاقة /٣٢ - ٣٠، فنجد التقديم والتأخير يلعب دوراً هامّاً في ايقاع هذه الآيات الكريمة، فقد اتفق حسن النظم مع تناسب رؤوس الآيات حيث قدّم (الجحيم) على عامله وقدّم الجار والمجرور (في سلسلة) على عامله، فجاءت الموسيقى قوية متتابعة، والتصوير حقيقياً رائعاً والمشهد رهيباً مُروّعاً.

ولا يخفى علينا جمال الايقاع وروعته في الآيات التالية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾. فبتقديم بعض الكلمات والعبارات على البعض الآخر نحسّ بموسيقى العبارات تدبُّ في وجودنا، فلولا تقديم المفعول (اياك) في العبارتين لما أحسسنا بهذه الموسيقى ولو قيل (نعبدك ونستعينك) لزالت الروعة الايقاعية الكامنة في الآية. وتقديم ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ كان يتطلّب تأخير ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ...﴾ وتقديم ﴿أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ يتطلّب تأخير ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ...﴾ فهذا ترتيب لا يتصوّر أحسن منه.

التقديم والتأخير في سورة الفاتحة:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ * إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ * اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ * صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾.

من خلال اسمها نعرف مناسبة افتتاح القرآن الكريم بها فهي فاتحة الكتاب بها ابتدأ ترتيب سوره لما فيها من أغراض عظيمة سيقت من أجلها، وهي أعظم سورة في القرآن الكريم وغرضها اثبات استحقاق الله تعالى لجميع المحامد وصفات الكمال، واختصاصه بالعبادة والاستعانة والسؤال...))[١١].

لسورة الفاتحة أسماءٌ كثيرة، منها:

١- **سورة الفاتحة**: وذلك لأنّها أوّل ما يقرأ من القرآن الكريم. وتقديمها على غيرها يدلُّ على عظيم شأنها وقدرها.

٢- **أم الكتاب**: لأنّ معاني القرآن الكريم ترجع إلى هذه السورة فهي تشمل المعاني الكلية والمباني الأساسية التي يتكلم عنها القرآن.

٣- **السبع المثاني**: لأنّها تثني في كلّ ركعة.

٤- **سورة الحمد**: لأنّها بدأت بحمد الله عزّ وجلَّ.

٥- **المناجاة**: لأنّ المصلي يناجي بها الربّ فيجيب.

٦- **سورة الصلاة**: لأنّها تكون فاضلة أو مجزئة بقراءتها فيها.

وفيما يأتي تحليل بلاغي لآيات هذه السورة المباركة؛ لنشير إلى شيء من مظاهر الإعجاز البياني فيها، لنبيّن جماليات التقديم والتأخير في كلّ كلمة، وآية وجزء منها:

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾:

الحمد هو الثّناء على المحمود بأفضاله وإنعامه. والحمد لله ثناءٌ على الله تعالى بما أنعم وأعطى.

فإذا قيل: فلانٌ حمد، فمعناه: أنّه شكره على إحسان قدّمه إليه. والسورة تبدأ بالاعتراف، الاعتراف فيه معنى عظيمٌ؛ لأنّه إقرارٌ من العبد بتقصيره وفقره وحاجته واعترافُ لله جلّ وعلا بالكمال والفضل والإحسان وهو من أعظم العبادات.

إذا نظرنا إلى سياق السورة يتبين لنا سرّ تقديم ((الحمد الله)) على ((اهدنا الصِراط المستقيم....))

لأن مجيء الثناء بين يدي الطلب أدعى للإجابة، وهو من مظاهر التناسب والتناسق بين المعاني. وإذا كانت البلاغة ((مطابقة الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال))[١٢]. أي أن مرجعها إلى الدقة في ملاءمة الالفاظ للمعاني؛ ومدى القدرة على توظيف المباني لتجليلة المعاني وابرازها في الصورة المطلوبة؛ فإن القرآن الكريم كان هو المثل الأعلى المعجز لبلاغة الكلام،

إذْ تتعانق فيه صور الكلام مع المعاني والمضامين والأعراض وتتلاءم على وجه معجز لا يطمح إلى آفاقه فحول البلغاء.

وأول ما يتلقاك من بلاغة هذه السورة ((حسن الافتتاح وبراعة الاستهلال)). فحمد الله والثناء عليه بما هو أهل له، ووصفه بما له من الصفات العالية أحسن ما افتُتِح به الكلام(١٣).

أما ((براعة الاستهلال)) فقد استهلّ القرآن بالفاتحة فجاءت مشتملة على مقاصده. يقول السيوطي في الاتقان: ((ومن الابتداء الحسن نوع أخص منه يسمى ((براعة الاستهلال))، وهو أن يشتمل أول الكلام على ما يناسب حال المتكلم فيه، ويشير إلى ما سبق الكلام لأجله، والعلم الأسنى في ذلك سورة الفاتحة التي هي مطلع القرآن، فإنها مشتملة على جميع مقاصده.... فنبّه في الفاتحة على جميع مقاصد القرآن، وهذا هو الغاية في ((براعة الاستهلال)) مع ما اشتملت عليه من الألفاظ الحسنة والمقاطع المستحسنة وأنواع البلاغة...))(١٤).

في هذه الآية تقدّم لفظ الجلالة ((الله)) على ((الربّ)) وانّنا إذا أمعنا النظر في معاني كلٍّ منهما ستتبين لنا حقائقٌ ولطائف تبهر عقولنا. فاللفظ الأول هو الاسم الأعظم لله عزّ وجلَّ الذي تلحق به الأسماء الأخرى، ولا يشاركه فيه غيره. ومن معانيه أن القلوب تألهه (تحنُّ إليه)وتشتاق إلى لقائه ورؤيته، وتأنس بذكره.

ومن معاني الله: أنّه الإله المعبود المتفرّد باستحقاق العبادة، ولهذا جاء هذا الاسم في الشّهادة؛ فإنّ المؤمن يقول: (أشهد أن لا إله إلا الله) ولم يقل مثلاً: أشهد أن لا إله إلا الرحمن.

أما لفظة ((الربّ)) تعني المالك (١٥)، خالق كلّ شيء والقادر عليه، كلّ من في السماوات والأرض عبدٌ له وفي قبضته، وتحت قهره.

ومن هنا يتين لنا سرّ التقديم والتآخر بين هاتين المفردتين فـ ((الله)) هو الأصل و((الرب)) هوالمالك والمالكية تأتي في مرحلة متأخرة عن الألوهية ففي البداية يخْلَق الانسان وثمّ يملَك. لا ننسى بأنّ ((ربّ العالمين)) هنا جاءت نعت لـ ((الله)) والمتأمل في دلالة هذا

النعت يجد أن وصف المعبود بالربوبية في مقام الدعاء والثناء ((أقرب - كما يقول العلامة الآلوسي - لدر ثدي الإجابة وأقوى لتحريك عرق الرحمة))[١٦].

﴿الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾:

هذان الاسمان من أسماء الله متضمنان صفتين من صفاته، وهما مأخوذان من الرحمة. الرحمن عند بعض العلماء مبالغة في الرحمة، فهو أشدّ مبالغة من الرحيم ولذلك قالوا: رحمن الدنيا والآخرة، ورحيم الدنيا، ويقولون: إنّ الزيادة في البناء لزيادة المعنى. فقدّم ما هو أبلغ من الوصفين على ما هو دونه، والقياس الترقي من الأدنى إلى الأعلى كقولهم: فلان عالم نحرير، وشجاع باسل، وجواد فياض. لما قال (الرحمن) تناول جلائل النعم وعظائمها وأصولها، أردفه (الرحيم) كالتتمة والرديف ليتناول ما دقّ منها ولطف[١٧].

هذا من جانب المعنى، أمّا من جهة اللفظ فبما أنّ ((الميم)) قريبة المخرج من حرف ((النون)) فتشكل فاصلة عذبة مع رؤوس الآيات الأخرى المختومة بـ ((ين)) فلو حصل تقديم وتأخير بين المفردتين أي إذا قلنا: (الرحيم الرحمن) لاختلّ ايقاع الجملة ولزالت خفّتها وطراوتها.

وجاءت صفته الربوبية متقدمة على صفة الرحمة نظراً لتعلقها بما قبلها وهو قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ﴾، فالله محمود لذاته محمود لصفاته محمود لنعمه وعطائه وقضائه وهو سبحانه ربّ الجميع المؤمن والكافر فهو الذي أوجدهم من العدم ورباهم على الجود والكرم فكل النعم التي هي من عطاء الربوبية هي في الدنيا لخلقه جميعاً وقد أوجدها لهم قبل وجودهم لتكون موجبات الحمد موجودة قبل الوجود الإنساني. فالحمد لله رب العالمين على ايجادنا من عدم وإمدادنا من عدم ثم يأتي الرحمن الرحيم في الفاتحة بمعنى رحمة الله في ربوبيته لخلقه حتى لا يفهم من هذه الربوبية أنها ربوبية ظلم[١٨].

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾:

يعني مالك يوم الجزاء والحساب؛ وجاء بهذه الآية متأخرة عن ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾ ليدخل العباد في دائرة الطمأنية من أنّهم إذا أصابهم ظلم في الدنيا فإن هناك

يوماً لا ظلم فيه وهذا اليوم الأمر فيه لله وحده بدون أسباب فكل إنسان لو لم يدركه العدل والقصاص في الدنيا فإن الآخرة تنتظره ولهذا جاء الترتيب في السورة على أساس أن البداية من الله ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ والرحمة في الإيجاد والمعاش من الله ﴿الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾ والنهاية إلى الله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾. يقول صاحب غرائب القرآن في تفسيره لهذه الآية: ((في هذه السورة من أسماء الله خمسة: الله، الربّ، الرحمن، الرحيم، المالك كأنّه يقول لك: خلقتك أولاً فأنّا الله، ثم ربيتك بأصناف النعم فأنا الربّ، ثم عصيت فسرت عليك فأنا الرحمن، ثم تبت فغفرت لك فأنا الرحيم ثم أجازيك بما عملت فأنا مالك يوم الدين))[١٩].

فقد جاء هذا الترتيب بأحسن صورة حيث لا يتصوّر أحسن من هذا الترتيب، وقد أخطأ مكي فيما نقله عنه أبو حيان من أن قوله تعالي في فاتحة الكتاب ﴿الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ﴾ مؤخر يراد به التقديم تقديره ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ * الرَّحْمَانِ الرَّحِيمِ * مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ وعلل ذلك بقوله: ((وانّما قلنا بالتقديم لأنّ مجاورة الرحمة بالحمد أولى ومجاورة المُلك بالمُلك أولى)). وردّ عليه أبو حيان بما يشفي قائلاً: ((وكلام مكي مدخول من غير وجه،... الترتيب القرآني جاء في غاية الفصاحة لأنّه تعالى وصف نفسه بصفة الربوبية وصفة الرحمة، ثم ذكر شيئين: أحدهما: ملكه يوم الجزاء. والثاني: العبادة، فناسب الربوبية للملك، والرحمة للعبادة، فكان الأول للأول، والثاني للثاني))[٢٠].

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾:

تقديم الضمير المنصوب وتكراره فللدلالة على الاختصاص والقصر، ولإبراز الاستلذاذ بالمناجاة والخطاب، والمعنى: ((نخصك بالعبادة لانعبد غيرك ونخصك بالاستعانة لا نستعين غيرك))[٢١]. وهذا مظهر من مظاهر القوة في القرآن في لغته، إذ نجد تقديم كلمة عن مكانها يعطي للجملة دلالة جديدة في ايجاز واختصار وتركيز دون أن نضيف إلى الجملة ألفاظاً زائدة كي تؤدي هذه الدلالة الاضافية.

وللتقديم دلالة أخرى هي الاهتمام والعناية بالمقدم. فقد قدّم العبادة ((اياك نعبد)) وأخّر الاستعانة ((اياك نستعين)) لأنّ العبادة أهمّ فهي مما يتقرّب بها العبد إلى الله تعالى، ومنها أنها وسيلة فتقدم في طلب الحاجة لأنّه أدعى للإجابة[٢٢].

والحقيقة إنّ العبادة هي حقّ من حقوق الله خلافاً للاستعانة التي هي حق من حقوق الإنسان فقدّم حقّ الله على حقّ الانسان للأهمية. العبادة هي علة خلق الانسان والجن ((وما خلقت الإنس والجن الاّ ليعبدون)) الذاريات / ٥٦. والاستعانة انما هي وسيلة للعبادة فالعبادة أولى بالتقديم.

ولا يخفى علينا جمال الايقاع وروعته في هذه الآية فلولا هذا التقديم والتأخير لفقدت الآية جمالها وايقاعها ولضعف اثرها لأن الايقاع جاء هنا في خدمة المعنى. لولا تقديم المفعول في العبارتين ولولا تقديم ((العبادة)) على ((الاستعانة)) لما أحسسنا بهذه الموسيقى ولو قيل (نعبدك ونستعينك) أو (اياك نستعين واياك نعبد) لزالت الروعة الايقاعية الكامنة في الآية.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾:

معرفة العبودية فمبدؤها ((اياك نعبد)) وكمالها ((اياك نستعين)) في جميع المطالب، وإذا ثم الوفاء بالعهدين ترتبت عليه الثمرة وهو قوله: ((اهدنا الصراط المستقيم)). ويكون قوله: (اهدنا) بياناً للمطلوب من المعونة، كأنه قيل: كيف أعينكم؟ فقالوا: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. وإنما كان أحسن لتلاوم الكلام وأخذ بعضه بحجزة بعض[٢٤].

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلاَ الضَّالِّينَ﴾:

هذا تأكيدٌ للمعنى السّابق وتفصيلٌ له، فقوله: صراط الذين أنعمتَ عليهم يعني الذين حازوا الهداية التّامة ممن أنعم الله عليهم من النبيين والصدّيقين، والشُّهداء، والصالحين. أسند اولاً الإنعام إلى الله صراحةً فقال: ((أنعمت)) ببناء الفعل للمعلوم والإيتان به ماضياً، لأن الغرض طلب الهداية إلى صراط من ثبت إنعام الله عليه وتحقق. وعَدَلَ ثانياً عن إسناد الغضب والإضلال إليه لفظاً فلم يقل: (غير الذين غضبت عليهم أو الذين أضللتهم)، لتعليم العباد الأدب مع الله تعالى؛ فإن من طُلِب منه الهداية ونُسِبَ إليه الإنعام لا يناسب نسبة الغضب إليه[٢٥].

فتقديم ما أنعم الله به على عباده من الهداية والكرامة أولى من تقديم ما فعله الأشرار

بأنفسهم من استحقاق الغضب عليهم والوقوع في الضلالة والقواية فقدم الله ذكرهم لبيان إنعامه وإكرامه لهم.

قيل المغضوب عليهم: هم اليهود؛ لقوله عزّ وجلّ: ﴿مَنْ لَعَنَهُ اللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيْهِ﴾ (المائدة/٦٠). والضالون: هم النصارى؛ لقوله تعالى: ﴿قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ﴾ (المائدة/٧٧)[٢٦]. المغضوب عليهم من اليهود لم يهتدوا إلى الصّراط المستقيم فمعهم علمٌ لكن لم يعملوا به. وقدّم الله تعالى المغضوب عليهم على الضّالين؛ لأنَّ أمرهم أخطر وذنبهم أكبر؛ فأنّ الانسان اذا كان ضلاله بسبب الجهل فإنّه يرتفع بالعلم، وأمّا اذا كان هذا الضّلال بسبب الهوى فإنّه لا يكاد ينزع عن ضلاله. ولهذا جاء الوعيد الشديد في شان من لا يعمل بعلمه.

وقال أبو حيان في تقديم المغضوب عليهم على الضالين بأنّ: ((قدّم الغضب على الضلال وإن كان الغضب من نتيجة الضلال، ضلّ عن الحق فغضب عليه لمجاوره الإنعام ومناسبة ذكره قرينة، لأنّ الإنعام يقابل الانتقام ولا يقابل الضلال الإنعام فالإنعام إيصال الخير إلى المنعم إليه والانتقام إيصال الشرّ إلى المغضوب عليه، فبينهما تطابق معنوي وفيه أيضاً تناسب التسجيع، لأن قوله: ((ولاالضالين)) تمام السورة فناسب أواخر الآي، وكان العطف بالواو الجامعة التي لا دلالة فيها على التقديم والتأخير لحصول هذا المعنى من مغايرة جميع الوصفين الغضب عليه والضلال لم أنعم الله عليه، وإن فسر اليهود والنصارى فالتقديم إما للزمان أو لشدّة العداوة، لأن اليهود أقدم وأشدّ عداوة من النصاري))[٢٧].

هذا وكما بدأت هذه السورة الكريمة بحسن الابتداء فقد ختمت بحسن الابتداء فقد ختمت بحسن الانتهاء فجاءت الآية الأخيرة ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ تفصيلاً لجملة المطلوب ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

ومن بلاغة هذه السورة وجمالها عذوبة الجرس وحلاوة الإيقاع وتناسبه مع موقف الدعاء، ويتمثّل ذلك في جمال المدود والحركات ونظم الفواصل ودقّة اختيارها، وأدائها لوظيفتها الدلالية والإيقاعية الصوتية خير أداء. فمن حيث المعنى جاءت الفاصلة في كلّ آية من آيات هذه السورة الكريمة متمكنة مطمئنة غير نافرة ولا قلقة، مناسبة لما قبلها، يكتمل بها

معنى الآية بحيث لو حذفت أو غيّرت لاختلّ المعنى.

النتيجة:

- كان للتقديم والتأخير في هذه السورة دواعٍ اقتضاها التعبير أو المقام أو السياق، وقد رأينا في دراستنا لهذه السورة المباركة الإعجاز القرآني الناتج من التقديم والتأخير.
- استطاع أسلوب التقديم أن يخاطب العقل والوجدان في آنٍ واحد، وكان له القدرة على حمل السامع أو القارئ على المشاركة في تفعيل الموقف القرآني وما يحمله من معانٍ وآداب رفيعة، فنشّط الخيال وحرّك الأذهان والعقول.
- كان لأسلوب التقديم سمة أسلوبية بالغة الأثر في معرفة خواص تركيب الكلام وكشف خبايا النفس والنفوذ إلى أعماقها.
- لا يقف التقديم والتأخير عند جزئيات اللغة من كلمات وجمل يُقَدّم بعضها على بعض وإنما يمتدّ ليشمل الآيات والموضوعات. وما كان لآية تسبق أختها أو موضوع هو سابق لأخيه إلاّ لنكتة بلاغية ودلالة معنوية يثبتها السياق في مضمونه وبين طياته.

الملخص:

في هذه الدراسة حاولنا أن نبيّن جانباً من جمال نظم القرآن وروعة إبداعه فتناولنا أسلوب التقديم والتأخير بالدراسة والتدقيق لما فيه من وجوه بلاغية دقيقة يُستَحسن الوقوف عليها. درسنا أهمّ الدوافع المعنوية واللفظية لظاهرة التقديم والتأخير محاولين تبيين مدى القدرة على توظيف المباني لتجلية المعاني ومدى تعانق صور الكلام في المعاني والمضامين والأغراض. ثمّ أقبلنا على دراسة سورة الحمد كنموذجٍ وبيّنا فيها جماليات التقديم والتأخير. تهدفُ هذه الدراسة التي اعتمدت في خطتها على المنهج الوصفي – التحليلي، إلى الكشف عن جماليات سورة الفاتحة المباركة لكثرة التعامل معها في الصلاة فمن يطّلع على جمالها وبلاغتها سوف ينتفع بذلك فيطيل النظر والإمعان فيها ويتّضح له إعجاز القرآن الكريم.

الكلمات الدليلية: القرآن الكريم، سورة الحمد، البلاغة، التقديم والتأخير، الجماليات.

هوامش البحث ومصادره

(١) عون، علي أبو القاسم: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج ١، ص١٧.
(٢) الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، ص١٠٦.
(٣) عبدالرحمن، عائشة: الإعجاز البياني للقرآن، ص٩.
(٤) عون، علي أبو القاسم، بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص٥٠.
(٥) المصدر السابق، ص٥١.
(٦) المسيري، منير محمود: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص١٣٥.
(٧ المصدر السابق، ص١٤٢.
(٨) السيوطي، جلال الدين: الاتقان في علوم القرآن، ج ٢، ص٢٠٩.
(٩) ابن الأثير: المثل السائر، ص٢١٢.
(١٠) العمري، أحمد جمال: دراسات في القرآن والسنة، ص٨٣.
(١١) عطيف، يحيى بن محمد: ((من بلاغة آيات الدعاء في القرآن الكريم))، ص٧١٤.
(١٢) التفتازاني، سعد الدين: شرح المختصر، ط٢، قم، اسماعيليان،١٤٢٨، ص٣٠.
(١٣) الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، ص٢٠.
(١٤) عطيف، يحيى بن محمد: ((من بلاغة آيات الدعاء في القرآن الكريم))، ص٧١٤.
(١٥) الزمخشري، جار الله: الكشّاف، ص١٠.
(١٦) عطيف، يحيى بن محمد: ((من بلاغة آيات الدعاء في القرآن الكريم))، ص٧١٦.
(١٧) الزمخشري، جار الله: الكشّاف، ص٨.
(١٨) المسيري، منير محمود: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ص١٥٨.
(١٩) المصدر السابق: صص١٥٩- ١٥٨.
(٢٠) الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير أبو حيان: تفسير البحر المحيط، صص ١٣٣ - ١٣٢.
(٢١) عطيف، يحيى بن محمد: ((من بلاغة آيات الدعاء في القرآن الكريم))، ص٧١٧.
(٢٢) المصدر السابق: ص٧١٨.
(٢٣) الزمخشري، جار الله: الكشّاف، ص١٥.
(٢٤) عطيف، يحيى بن محمد: ((من بلاغة آيات الدعاء في القرآن الكريم))، ص٧١٩.
(٢٥) الزمخشري، جار الله: الكشّاف، ص١٧.
(٢٦) الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير أبو حيان: تفسير البحر المحيط، ص٦٠.

قائمة المصادر والمراجع

١- القرآن الكريم.

٢- ابن الأثير: المثل السائر، تح محي الدين عبدالحميد، بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٩٥م.

٣- الأندلسي، محمد بن يوسف الشهير أبو حيان: تفسير البحر المحيط، تح علي محمد عوفي، بيروت، دار الكتب العلمية،١٩٩٣م.

٤- التفتازاني، سعد الدين: شرح المختصر، ط٢، قم، اسماعيليان،١٤٢٨.

٥- الجرجاني، عبد القاهر: دلائل الإعجاز، تح أبو فهر محمود محمد شاكر، ط ٢، القاهرة، مكتبة الخانجي،١٩٨٩م.

٦- الزمخشري، جار الله: الكشّاف، قاهرة، المكتبة التجارية الكبري، ١٩٥٣م.

٧- السيوطي، جلال الدين: الاتقان في علوم القرآن، ج٢، بيروت، المكتبة الثقافية، ١٩٧٣م.

٨- الصالح، صبحي: مباحث في علوم القرآن، بيروت، دار العلم للملايين، ١٩٩٧م.

٩- عبدالرحمن، عائشة: الإعجاز، البياني للقرآن، ط٢، مصر، دار المعارف، ١٩٨٧.

١٠- عطيف، يحيى بن محمد: ((من بلاغة آيات الدعاء في القرآن الكريم))، الرياض، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٥، ١٤٢٤هـ.

١١- العمري، أحمد جمال: دراسات في القرآن والسنة، ط ١، القاهرة، دار المعارف، ١٩٨٢م.

١٢- عون، علي أبو القاسم: بلاغة التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ج١، بيروت، دار المدار الاسلامي، ٢٠٠٦م.

١٣- المسيري، منير محمود: دلالات التقديم والتأخير في القرآن الكريم، ط ١، القاهرة، مكتبة وهبة، ٢٠٠٥م.